رسوم نجيب فرج

على من تقام صلاة الجناز ؟

د. حسين مؤنس

أكتوبر

هذه الحرب القائمة بين العراق وايران فى ارض الاسلام لن ينتصر فيها هؤلاء أو أولئك . ولكن المهزم فيها فى النهاية هو أمة الاسلام والعرب . خلال أربعة عشر قرنا تحارب أصحاب السلطان وضيعوا الارواح والأرض والأموال ولكن امة الإسلام والعروبة هى التى سددت الحساب كله . والضحايا والموتى هم نحن على الجانبين . وكل صلوات الجناز اقيمت فى الحقيقة علينا نحن . افراد امة الاسلام والعرب .

الكتاب الكبار ليسوا عظماء بالمصادفة . ولاهم يصلون إلى هذا المستوى فوا فوسدى . ولاهم يأخذون الكتابة تسلية أو مجرد وسيلة للعيش . إنما هم دائما جادون حتى عندما يكتبون مايثير الضحك .

إنهم عظماء لأنهم يقولون كلاما عظيما . وهم يعرفون أن الكلام العظيم يبدو كلاما وهو فى الحقيقة قوة تدفع الإنسانية ولبنى الدول والحضارات . لأن هذا الكلام العظيم يكشف حقائق الحياة . ويثير مجاهل النفس الإنسانية . ويكشف الخيوط الدقيقة التى تحرك الحياة على هذا الكوكب .

ولكى تخرج بالفائدة من كلامهم ينبغى أن تقرأهم فى جد . وتقرأهم وأنت مفتوح العينين والذهن والقلب . فإن الكثير مما يقولون إنما هو أشعة سينية تخترق حجب المادة وتبدد سحب الحياة .

من هؤلاء ايرنست همنجواى . ومن كلماته التى تنفذ إلى صميم الحياة ذلك السؤال الذى جعله عنوانا لروايته الخالدة « لمن تدق الأجراس ؟ » وقد أجاب عليه فى ثنايا الرواية مرات ومرات .

كتبها بعد أن اشترك فى الحرب الأهلية الأسبانية . وخاض غمار معارك الشيوعيين والوطنيين هناك فى حوض الأبرو فى أسبانيا . وكانت معارك الأبرو أهوالا كالجبال . ولقد خاضها الجانبان بكل مافى كيان الإنسان من وحشية . والإنسان هو أبشع وحوش هذه الأرض وأعتاها وأشدها ضراوة . وقد جرت فيها الدماء أنهارا بالفعل .

والعبارة وردت أول مرة على لسان بطل الرواية روبرتو جوردان (والمفروض أنه هو همنجواى نفسه) قالها ذات مساء لخريق . والشيوعيون – وكان يحارب فى صفوفهم لأنه كان يحسب أنهم مجاهدون فهم قضية – معتصمون فى مخارم الجبال بعد يوم كله ضرب وقتل ودماء . كان يحدث صديقه أنسيلمو وهو يأكل قطعة من خبز جاف بينما كانت بيلار – وهى الشخصية النسائية الرئيسية فى الرواية – تطهو شيئا للعشاء . وترامت إليه من بعيد أصوات أجراس الكنائس . كانت تقرع برنين جنائزى بينما كان القساوسة يرتلون الصلوات على أرواح أموات ليست لهم أسماء . إنهم بعض أولئك النعساء الجاهيل الذين يموتون وهم يحسبون أنهم يصنعون التاريخ .

إنهم مئات . ماتوا فى تلك الحرب الأهلية ومازال أمثالهم يموتون فى كل ركن من أركان الأرض . يموتون تحت رايات ذات ألوان . والألوان فى معظم الأحيان غير ذات معنى . إن الوانها تشبه لون « المولينا » الحمراء . التى يضعها مقاتل الثيران أمام عينى الثور الجريح المجهود لكى يجرى ويضربها بقرنيه فيجد أنه ضرب الهواء ولايزال يضرب الهواء بقرنيه حتى يستقر سيف « التوريرو » بين كتفيه .

وأحس الرجل أن هذه الأجراس لاتدق لحظا أو لذاك . إنها تدق للبشر جميعا . فإننا أبناء آدم وحواء أمة واحدة . وعندما يموت واحد منا يموت بعض كياننا . فهذه الأجراس التى ترسل رنينها الحزين إنما هى تنعاه إلى نفسه .

ونحن ونحن لاندق الأجراس عندما يموت منا أحد .

نحن نقيم صلاة الجناز . والجناز فى اللغة هو الميت نفسه . وصلاة الجناز هى طلب الرحمة له . الحقيقة أننا نطلب الرحمة لأنفسنا عندما نكبر تكبيرات صلاة الجناز . لأن هذا الجناز هو نحن جميعا . ألم يقل الله سبحانه فى مطلع سورة النساء .

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)

وفى سورة لقمان (آية ٢٨) :

(ماخلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة)

وفى سورة المائدة (آية ٣٢) (من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا)

فنحن جميعا نفس واحدة . تخلق تفاريق . وتموت تفاريق . ولكنها فى البداية والنهاية نفس واحدة . وهذا الإنسان الذى تراه جنازا يسار به إلى اللحد إنما هو أنت . عرفته أو لم تعرفه . حزنت لموته أو لم تحزن . وقد يطرب بعضنا لموت إنسان . ولكنه فى غمرة الطرب ينعى نفسه لنفسه دون أن يدرى .

ونحن العرب والمسلمين بالذات لايينبغى أن نغفل عن هذه الحقيقة قط . لأن الله سبحانه قال لنا فى سورة الأنعام (آية ٩٨) :

(وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع)

والمستقر – بفتح القاف – هو الإنسان الحى . والمستودع هو المستودع باطن الأرض . أى الميت . وكلنا أحياء وأمواتا نفس واحدة .

●●●

أفكار

جرى بها الخاطر وأنا أسمع أخبار القتال بين إيران والعراق . وتملكنى الدهش وأنا أستمع إلى مذيع العراق وهو يقول فى نشوة الظافر : حطمنا كذا طائرة ايرانية . وقتلنا – لا أدرى – كم إيرانيا . وأغرقنا كذا سفينة بمن فيها . وأستمع إلى الآخر من إيران يقول : قتلنا وأحرقنا وسنمحو العراق من على الخريطة .

وأقول : أيها الساكين تقتلون أنفسكم بأيديكم وأنتم لاتشعرون . فهؤلاء القتلى على الجانبين هم أنتم ، وهم أنا وأنت . لأن هذه الأمة أمة واحدة . وما أهلكها على طول القرون إلا قتل بعضها بعضا . وعلى طول تاريخنا لم يقتل الأعداء منا عشر ماقتلناه نحن بأيدينا . إن العدو لايفعل فى كثير من الأحيان إلا أن يناولنا السلاح ونحن نتولى قتل أنفسنا لحسابه .

أليس هذا بعض الذى نراه اليوم ؟

وماهذا الذى نسمعه من أن العراق يحارب إيران . وإيران تحارب العراق . أليست هذه كلها أرضنا وتلك كلها أمتنا ؟ فكيف والله يقول أهل العراق إنهم يغزون الأهواز . ويقول أهل إيران إنهم يريدون البصرة ؟

وملك من هذه الأرض كلها ؟ أهى ملك أصحاب الأمر فى طهران أو بغداد أم هى أرض المسلمين جميعا ؟ وبأى حق يتصرفون هذا التصرف الأحمق فى أموال المسلمين وأرض المسلمين ؟

وهذه المنشآت البترولية التى تحطمها طائراتهم من الجانبين . . هل هى ملك هذا أو ذاك أو هى ملك أمة الإسلام ؟ والذى يضيع اليوم من سيعوضه ؟ لن تعوضه إلا أمة العرب والاسلام . وسيمضى أصحاب الأمر هناك إلى ربهم بوما ما ليحاسبهم الحساب العسير . وتبقى أمة العرب والاسلام بالخسائر والآلام .

وهذا

البترول الذى هو نعمة كبرى على العرب والمسلمين جميعا أصبح فى أيدينا نقمة بسبب تصرف نفر قليل من الناس .

فلم يكن هناك عربى واحد يعرف أن هناك تحت الأرض الإسلامية هذا الخير كله . وفى أيام العباسيين كانت الدولة إذا أرادت أن تهين إنسانا أقامته . صاحب النفط . لأن النفط كان يسيل على الأرض فى بعض النواحى فى العراق . وكانوا يستخرجون منه القار ولازيادة . فكان صاحب النفط – الذى هو وزير البترول اليوم – هو صاحب القار أو الزفت .

هذا الزفت تبين أنه أكثر ثروة وهبها الله للعرب والايرانيين . لقد استخرجه القوم وصفوه وأنشأوا له المصانع والمنشآت والأنابيب والسفن . وأفقنا من غفوتنا واستعدنا ثروة بلادنا .

فماذا فعل بعضنا بها ؟ لم نكد نستمتع بها زمانا قصيرا حتى بدأ بعضنا يلعب بها ويستخدمها فى تصفية حزازات ومحاولة كسب أمجاد وهمية . ثم أشعلوا فيها النار ! ولاهم لطائرات العراق إلا تخريب بترول إيران . ولاهم لطائرات إيران إلا تخريب بترول العراق ! فهل فى الدنيا عبث هو أو غل فى الشر من هذا العبث .

●●●

ثم

استمع إلى الأخبار

إن إيران تقذف بغداد بالقنابل . ومثل ذلك تفعل ايران بمدن أخرى فى العراق . وغريب من الأمر أن كلا الجانبين يضرب بغير حساب . إن كل هدفه تحطيم الآخر والقضاء عليه دون رحمة أو هوادة .

هل نذكر كيف كان تصرف الأعداء الأوربيين بعضهم مع بعض أثناء الحرب العالمية الثانية ؟ لقد قذف الألمان لندن بالقنابل ولكنهم لم يهدموا كنيسة سان بول ولا المتحف البريطانى ولا أى شئ ذا قيمة قومية خالدة . وعندما حطم الألمان كانترى . وهى مدينة إنجليزية صناعية انتظم الانجليز بتحطيم دسلدورف . ولكنهم لم يخربوا متحف برلين ولا هم هدموا كاتدرائية كولونيا . واحتل الألمان باريس وحكموها . فلم يهدموا قصرا ولا متحفا . ولامسوا اللوفر بأذى . ولاهم خدشوا قوس النصر أو حدائق فرساى .

لأن الحرب أيضا فيها حضارة وجاهلية . ونحن الذين آتانا الله الخير كله وقال لنا فى كتابه إننا نفس واحدة . لا نريد أن نتذكر أننا نفس واحدة . . إنما هى نفس ممزقة محطمة . يقتل بعضها بعضا . لأن بعضنا فيما يبدو . . ما زالوا أعرابا أسلموا ولم يدخل الإيمان قلوبهم . ولو دخلها لعرفوا أن مايصنعه بعضنا اليوم بوطننا العربى والإسلامى جريمة . جريمة بدأت ولايعرف أحد كيف تنتهى . .

لأن العراق لايعرف ماذا يقول عندما يزعم أنه سيغزو كل ايران . وإيران بالنسبة لجند العراق إنما هى روسيا بالنسبة لجيشى نابليون وهتلر . والأرض فى أحيان كثيرة جدا تهزم الرجال . والمسافة بين البصرة وهرمز بالسير ألفا كيلو متر كلها صحارى مهلكة ومغارات معطشة . فكم ألف جندى من العراقيين المساكين سيهلك فى الطريق الموحش إلى هرمز . وكم ألفا سيهلك فى الطريق إلى همذان وأصفهان وطهران ؟ . . ومن الآن تستطيع أن تقول إنها لن تصل لو أنها أرادت ذلك . وفى نقطة ما من الطريق سيجد العراقيون أنفسهم فى ستالنجراد . ويهلك الألوف بعد الألوف . ويجرى سيل الدم البرئ من بغداد إلى أصفهان كما سالت أنهار الدم من برلين إلى ستالنجراد ؟

وماهذا الذى يقولونه فى طهران من محو العراق من الخريطة ؟ هل هذا لعب أو جنون أو اجرام ؟ ان هذا كله أوهام . فان العراق أجمة حافلة بالأسود . وعندما يتقدم الإيرانيون فى أرض العراق سيجدون أنهم يتساقطون من موت لموت . وسيفنى ألوف الإيرانيين فى الطريق . ونفس نهر الدم المسلم سيجرى من طهران إلى حيث يشاء الجنون .

ثم إن العراق ليس العراق فحسب . إنه قطعة من أرض العرب . وكل مواطن عربى سيقف للدفاع عن العراق . وليس بين عربى وعربى خلاف حينما يتعلق بسلامة الوطن العربى . « بلاد العرب أوطانى » ليست أنشودة . إنما هى قدر ومصير . وبغداد تبدأ عند دجلة ولكنها تمتد حتى القاهرة . والإيرانيون فيما يتصل بالعرب عمبان . طوال تاريخهم عمبان فيما يتصل بالعرب . والخصومة حول « الخليج الفارسى » . . و « الخليج العربى » ليست نزاعا حول لفظ . إنها نزاع بين أمتين لم تحاول إحداهما أن تفهم الأخرى قط . ولو فهم الإيرانيون العرب لتغير وجه التاريخ . وتاريخنا نحن على الأقل .

●●●

وإلى أن يفهم الإيرانيون العرب ستظل الحروب قائمة بين الجانبين . وهى حروب عقيم لايتمخ عنها إلا الدمار . وستنتهى يوما ما . كما انتهت كل الحروب التى قامت على وجه الأرض . سيخرج الجانبان منهزمين .

وأيا

ماكان الأمر فمازال السؤال قائما بالنسبة لأمة الإسلام التى هى نفس واحدة : على من تقام صلاة الخناز ؟ . . ويبقى الجواب بعد ذلك واحدا وهو : علينا جميعا . . على العرب والإيرانيين جميعا . .

وهؤلاء المساكين الذين نقرأ أن الحرب قطعتهم فى الصراع حول الأهواز أو قصر شيرين أو البصرة أو بغداد . إنما هم أنت وأنا . والشاكية التى يتطلق صوتها فى ظلام الليل هناك تبكى وحيدها . . هى فى الحقيقة أمى وأمك تبكينى وتبكيك .

لأن القتيل هو أخى او أبى أو أخوك أو ابنك .

والنار التى تأكل البترول هناك تأكل أموالنا نحن لا أموالهم فحسب .

سبحان من وهبهم كنزا لايوصف فضيعوه بغباء لايوصف .

□

هتلر — تشرشل — هيتلر